http://virtuelcampus.univ-msila.dz/leltp/?=212

المجلّد: 01 العدد: 02 (2021) ص45-54

تلقي النص في ضوء الخطاب النقدي العربي المعاصر

Receiving the text in the light of contemporary Arab critical discourse

د. حسين مبرك

ج. محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)

hocine.mebrak@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021/05/12

تاريخ القَبول:
2021/05/26

الكلمات المفتاحيّة:

- ✓ النّص
- ✓ الخطاب
- ✓ النّقدي
- ✓ المعاصر

الملخّص:

احتفى التراث النقدي والبلاغي للعرب بمفهوم النص، من خلال محاولات بعض النقاد والباحثين الذين تناولوا النص بالدرس، وخلصوا إلى جملة من المقولات والتصورات والمفاهيم التي تصب في إطار الجهود النظرية التي تستهدف إرساء أسس وقيم نصية في الثقافة العربية، على نحو ما قام به "الباقلاني" في كتابه "إعجاز القرآن"، و"حازم القرطاجني" في كتابه "منهاج البلغاء" وفي هذا السياق حاولت رصد إشكالية تلقي النص في الثقافة العربية المعاصرة، والأسباب التي جعلت منه مفهوما إشكاليا داخل البيئة النقدية والمعرفية العربية ومقاربة الآراء التي تنفي وجوده في الخطاب النقدي العربي، من خلال جملة من الطروحات النقدية التي حاولت رصد المفهوم وتجلياته في الخطاب النقدي العربي.

Article info

Received:
12/05/2021

Accepted:
26/05/2021

Abstract:

The critical and rhetorical heritage of the Arabs celebrated the concept of the text, through the attempts of some critics and researchers who dealt with the text with the lesson, and concluded a set of statements, perceptions and

concepts that flow into the framework of theoretical efforts aimed at laying foundations and textual values in Arab culture, as was done by Al-Baqlani in his book "The Miracles of the Qur'an", and "Hazem Al-Qartagani" in his book "Minhaj Al-Balagha", and in this context, I tried to monitor the problem of receiving the text in contemporary Arab culture, and the reasons that made it a problematic concept within the Arab critical and cognitive environment and to approach opinions that deny its existence in critical discourse. The Arab, through a number of critical propositions that attempted to monitor the concept and its manifestations in the Arab critical discourse.

Keywords:

- ✓ *Text*
- ✓ *Contemprary*
- ✓ *Critical*
- ✓ *Discours*

1. مفهوم النص عند العرب القدامى: يستمد النص مفهومه الاصطلاحي من خلال الاستعمال اللغوي ودلالته الجوهرية في لغة العرب، وقد ورد بمعنى الظهور والبيان، على نحو مانجده عند الخليل بن أحمد في معجمه: "نصصت الحديث إلى فلان نصا، أي: رفعته، قال:"ونص الحديث إلى أهله.فإن الوثيقة في نصه"... ونصصت الرجل استقصيت مسألته عن الشيء، يقال: نص ما عنده أي استقصاه"[1]كما استخدم العرب النص بمعنى الكلام الصريح والواضح الواضح الذي لايقبل التأويل، وهو ماأشار إليه الشافعي في الرسالة بقوله: "حق على طلبة العلم بلوغ جهدهم في الاستكثار من علمه والصبر على كل عارض دون طلبه وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصا واستنباطا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لايدرك خير إلا بعونه، فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا ووفقه الله للقول والعمل بما علمه فاز بالفضيلة في دينه ودنياه"[2]، وقد استعمله في هذا القول بمعنى الاستنباط والاستدلال، ومن ثم فالنص هو نسق لغوي أو نسيج لغوي يعبر بوضوح عن غرض معين أو فكرة ما، مقابلا للاستنباط والاستدلال.

أما محمد بن علي الجرجاني فعرف النص بقوله: "ما ازداد وضوحا على الظاهر بمعنى المتكلم وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى، فإذا قيل: أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي، ويغتم بغمي كان ذلك نصا في بيان محبته، وما لا يحتمل إلا معنى واحدا، وقيل: مالا يحتمل التأويل"[3]

وهو الرأي ذاته الذي ذهب إليه ابن قيم الجوزية: "المجاز والتأويل لايدخل في المنصوص، وإنما يدخل في الظاهر المحتمل، وهنا نكتة ينبغي التفطن لها وهي أن كون اللفظ نصا يعرف بشيئين: أحدهما عدم احتماله لغير معناه وضعا كالعشرة. والثاني ما اطرد استعماله على طريقة واحدة في جميع موارده، فإنه نص في معناه لايقبل تأويلا ولا مجازا، وإن تطرق ذلك إلى بعض أفراده وصار هذا بمنزلة خبر المتواتر لايتطرق احتمال الكذب إليه، وإن تطرق إلى كل واحد من أفراده بمفرده"[4]

1.1. مفهوم النص في الدرس الحديث: لاشك أن هناك اتفاقا بين مفهوم النص عند العرب القدامى وبين الدارسين المحدثين في نقطة أساسية، وهي أن اللغة مادة أساسية لبناء النص، رغم اختلافهم في مفهوم طبيعة النص ومكوناته، ذلك أن النص في نظر الدارسين المحدثين هو كل وحدة تواصلية تامة نصا، مهما كان النظام التواصلي الذي تستند إليه كاللغة والكتابة والإشارة والرسم، ومن ثم اكتسب النص عند المحدثين مفهومين، أحدهما لغوي والآخر سيميائي، فاللغة قد تكون أفعالا كلامية واردة في سياقات أفعال، وهذه اللغة هي النص، ليكون مجموعة المقولات اللسانية القابلة للتحليل

وإن النص بنية مهاجرة وردت إلى البيئة الثقافية العربية، فأدى إلى إحداث ثقافة جديدة مغايرة حركت الساكن الثقافي وفجرت المسكوت عنه، وفككت المفاهيم التاريخية الكلاسيكية، ويحاول الخطاب النقدي المعاصر ضبط المفاهيم والمصطلحات، وكشف آليات توظيفها واشتغالها وتجديد مجال استعمالها تفاديا لفوضى الاضطراب والتداخل، بحكم أن صحة المفاهيم وضبط المصطلحات هي العتبة الأولى التي يمكن من خلالها النظر في الظاهرة المدروسة.

وقد تناول النقاد العرب هذه القضية في دراساتهم وأبحاثهم النقدية والبلاغية، وأسفرت هذه الجهود عن تعدد المفاهيم والآراء، واختلاف التصورات والمقولات، بسبب تباين المناهج النقدية والطروحات الفكرية والخلفيات المعرفية التي تشكل مرجعيتهم الثقافية، غير أن هذه المفاهيم كانت في أغلبها مفاهيم غربية "ويعود سبب ذلك إلى الانتماء المنهجي الذي يجترح تصورات متطابقة مع تلك المناهج أو التمرد عليها"[5]ولعل تطور النص وسيرورته وانفتاحه هي التي جعلت مفهوم النص مفهوما إشكاليا" ومن ثم يتباين مفهوم النص من اللساني إلى الناقد إلى المفكر إلى المؤرخ "[6] ومنه فإن خصوصيات الانفتاح والقابلية للتأويل والتطور التي يتميز بها النص، هي التي أسهمت في تطور المباحث النصية، ووسعت من مساحة الإشكال في المفهوم، لذلك ذهبت المناهج النقدية مذاهب شتى في

التعريف بالنص، وتحديد مفهومه، فالبنيوية تعاملت مع النص على أنه نسيج أشبه بنسيج العنكبوت وذهبت اللسانيات إلى أن النص هو مقولة لغوية، في حين ترى السيميولوجيا أنه مجموعة من العناصر تؤلف بينها شبكة من العلاقات، وترى الماركسية أن النص امتداد للإيديولوجيا.

أما النقاد العرب، فقد حاولوا تحديد النص وفق طروحات عربية، وخلصوا في نهاية المطاف إلى أن النص هو نسيج من الكلمات يرتبط بعضه ببعض، كالخيوط التي تجمع عناصر الشيء المتباعدة في كيان كلي متناسق" المرجع نفسه،[7-] وقد نظروا في الأنظمة التي تشكل النص ورصدوا العلاقات التي تربط عناصره، ليصير النص وفق هذه الرؤية ...تشكيلا منغلقا على ذاته يحمل في داخله البؤرة أو المركز الذي يشكل نواة للعلاقات المتشابكة، والنص هو ذلك النسيج من القول وتسلسل الجمل التي تتعالق فيما بينها، لتخلق شروط التمظهر اللغوي"[8]

ولعل ما يؤخذ على الخطاب النقدي العربي هو أنه يعاني من ربكة منهجية، من خلال طروحات وتصورات النقاد العرب الذين تبنوا المناهج النقدية الغربية، ولم يراعوا حمولاتها الفكرية والمعرفية ولم ينظروا في خلفياتها ومرجعياتها الفلسفية والثقافية والاجتماعية، حتى غدت كتاباتهم النقدية عبارة عن شروح وتعليقات على المناهج النقدية الغربية، من غير وعي بمكوناتها وفرز لبنيتها وتحليل لأسسها وقواعدها، وهو ما أشار إليه "علي حرب" حين ذهب إلى "أن النخب الثقافية في العالم العربي تعاملت مع عناوين الحداثة ونتاجاتها بصور تقليدية أو قدسية بوصفها حقائق مطلقة أو نماذج تحتاج إلى تطبيق، مع أن الحداثة هي القدرة على الخلق والتحول، عبر إنتاج الصيغ والنماذج، أو إعادة بنائها على سبيل التعديل والتطوير"[9]

ويرى بعضهم أن المعايير البلاغية والقيم الجمالية غير قادرة على سبر أغوار عالم النص واستخلاص ممكناته وامتلاك مدياته، باعتبار أن جانبا من جمال تلك النصوص

وقيمتها الإبداعية تظل بعيدة عن المعرفة اللغوية والبلاغية والنفسية والاجتماعية، ومن ثم "فالنص بئر غزيرة الماء، كلما متح منها نشطت عروقها وتدفقت روافدها وتجددت مياهها وهو أمر يكشف عن الإمكانات غير المحدودة من الإيحاءات التي تصدر عن النصوص الأدبية، ويفضي إلى تعدد في إمكانات التحليل والاستنطاق"[10] .. إن استحالة الوصول إلى ممكن الإبداع في النص تبقى غاية لا يمكن الوصول إليها، لهذا تظل المقاربات النقدية فرضيات تسعى جاهدة إلى معاينة النص والكشف عن مستوياته الجمالية والأسلوبية والدلالية من دون الوصول إلى تخوم الإبداع النهائية التي يكتنزها النص؛ لذا يحدد بعضهم النص (بأنه ما يناسب دائما من بين أصابع القارئ)[11].

ويرفض بعضهم الوقوف عند حدود البنية اللغوية وأنساقها داخل النص، بل يحاول تجاوز ذلك إلى آفاق التأويل والتفاعل الجدلي بين النص والقارئ، فيرى أن التأويل يهدف إلى فهم أفكار الآخرين عبر علاماتهم وتفسيرها، والفهم يحصل حين تصحو التمثلات والإحساسات في نفسية القارئ وفقا للنظام والعلاقة الكائنين في نفسية المؤلف. "والنص من هذا المنظور ليس نسقا مغلقا من الرموز والإشارات والدلالات ،وإنما هو خطاب مثبت ومفتوح لا تنفك عنه حركة القراءة والنقد والتواصل الفكري وتداول المفاهيم ، ورؤوس أموال معرفية بين القارئ والكاتب"[12]

والتأويل يقيم حوارا بين القارئ والنص ليس عبر آلية القراءة الاستهلاكية، وإنما عبر آلية القراءة المنتجة التي تحاول إعادة صياغة النص برؤى القارئ وتصوراته، وهذا القارئ لم يكن متلقيا سلبيا تكمن وظيفته في البحث عن الدلالة المكتملة والمنجزة في النص، وإنما يغدو متلقيا إيجابيا يصبو إلى إنتاج دلالة جديدة تكون ناتجة من تفاعله مع النص، وعبر حواره معه كما أسلفنا. ويرصد بعضهم النص من منظور ثقافي، فالتعامل مع النص الأدبي عبر ذلك المنظور، يعني وضع النص داخل سياقه الاجتماعي والسياسي. وفي ضوء ذلك يتحرك الناقد الثقافي ضمن رؤية ثقافية اجتماعية تحاول أن تبحث عن البنى

المضمرة في النص ،فالنص هو *علامة ثقافية تتحقق دلالتها فقط داخل السياق الثقافي - السياسي الذي أنتجتها*[13].

وإن الكتابات العربية التي تناولت بناء النص تركز أغلبها على دراسة البنية النصية الصغرى والبنية النصية الكبرى والبنية العليا، وهي من طروحات (فان دايك)، ثم حاولت تلك الدراسات رصد ظاهرة الانسجام النصي والاتساق بين مكونات هذه الأبنية، ولهذا يمكن القول إن أغلب الدراسات التي تطرقت إلى بناء النص انطلقت من مرجعيات علم لغة النص، باستثناء بعض المحاولات القليلة التي انطلقت من نظرية النص مثل محاولة الناقد سعيد يقطين السابقة، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى أن نظرية النص لم تعبأ كثيرا في طروحاتها بقضية بناء النص وانسجامه، بل نجد أحيانا أن بعض مفكريها يحاول نقض الوحدة والانسجام في النص كما هو واضح عند رولان بارت وجاك دريدا والعامل المشترك لتلك الدراسات هو تأثرها الواضح بطروحات علم لغة النص واستهلاكها لطروحات هذا العلم، باستثناء محاولة محمد خطابي التي حاول فيها جاهدا تبنى طروحات تراثية تخص البناء النصي، وكذلك محاولة الناقد سعيد يقطين المستقاة من نظرية النص، فان أغلب الدراسات كانت تستنسخ المفاهيم والمقولات.

أما النص الحاضر في الدراسات العربية فكان النص الأدبي المكتوب، ماعدا دراسة أحد الباحثين للنص الشفاهي غير الأدبي، وهو نص المداخلة، بينما غاب النص الشامل من المحاولات العربية التي تناولت بناء النص، ولذلك يمكن القول إن بناء النص في الخطاب النقدي العربي يعنى به بناء النص الأدبي.

2.1. الممارسات النصية: أنتجت نظرية النص العديد من المفاهيم والممارسات. ولعل أبرز إرهاصات تلك النظرية الممارسة النصية وطابعها الإجرائي الذي يجسد الطروحات النظرية لنظرية النص، وقد أسهمت اللسانيات الحديثة في إثراء الممارسة النصية بما أنتجته من مفاهيم وبما وفرته من إمكانات للتحليل وأساليب الإجراء فانتقل

النص عبرها من الهامش الى المركز، ومن الوسيلة إلى الغاية ومن الإضمار إلى العلن، والممارسة النصية تظل ممارسة إشكالية منذ لحظة تكوينها في الدراسات الغربية لأنها أحيانا قد تتداخل مع بعض المناهج النقدية، وأن كل منهج يعاين النص ضمن خطوات منهجية قد تتباين مع المنهج الآخر، فأنتج ذلك قراءات متعددة للنص واحدة هي النص وتتقاطع بها، وتضع هذا النص في قلب الممارسة النصية، كما أنها تدرك استحالة اكتناه دلالته النهائية أو الوصول إلى تخوم النص النهائية، لهذا تظل الممارسة النصية مجرد محاولة تصبو إلى محاورة النص وكشف أنساقه المعلنة والمضمرة.

وتباين النقاد والباحثون العرب في ممارستهم النصية، كما تباينوا في معاينة الممارسة، فبعضهم يرى أن الممارسة النصية هي نمط من أنماط التحليل وترتبط بالنقد التطبيقي في سياقه الحداثي، وتكون مقابلة (لعلم النص)، وهذه الممارسة قائمة على حقيقتين:

الأولى: أن الممارسة سيمائية لأن الاهتمام بالنص والاعتناء بتحليله سوف يقودنا إلى فحص مكوناته السيمائية: أي أداته الأساسية التي هي اللغة.

الثانية: أن العملية النقدية تماهي بين الإبداع والتنظير أي تمزج بين النظرية والتطبيق، فتكشف عن العناصر النظرية، ثم تسعى إلى تطبيقها على نص معين، وهذا الطرح يؤكد أن الممارسة النصية هي (علم النص) و(النقد التطبيقي) و(الممارسة السيمائية) وهذا التصور يختزل الممارسة النصية في بعد واحد من أبعادها ويحولها إلى ممارسة تتعامل مع النص الأدبي المكتوب، ويقصرها عليه مع أنها فضاء واسع تكونه مجموعة من الأسس، وتشكله مجموعة من الإجراءات ويقارب بعضهم الممارسة النصية من منظور القراءة التي تعني الحوار والتفاعل المبدع والمشاركة الحقيقية بين النص والقارئ وهي ليست تلقيا سلبيا وإنما مشاركة القارئ في إنتاج النص، لأن النص الأدبي يحتاج إلى مساهمة المتلقي الإيجابية فالعالم الذي يبدعه النص يكون ناقصا، ومن المحال

أن ينتج النص الأدبي عالما متكاملا يكون بديلا عن العالم الواقعي، لذا يكون التلقي استكمالا لفجوات النص ويمكن القول إن القارئ يكمل النص في أربعة ميادين أساسية هي ميادين الاحتمال أو مشابهة الواقع، وميدان تلاحق الأحداث وتتابعها وميدان المنطق الرمزي وميدان مغزى النص العام"[14]

ويعتقد "حاتم الصك" أن القراءة ليست مسحا بصريا لألفاظ، واستنباطا لمعانيه المباشرة فحسب، وإنما هي فعل خلاق مثل الكتابة ذاتها ونشاط إبداعي يحاول إعادة صياغة النص لحظة تلقيه ويسقط القارئ وعيه وشعوره وذخيرته المتكونة على النص وتسعى قدرته وذوقه الجمالي إلى استنباط معاني النص المغيبة خلف نظام النص الظاهري وأنساقه اللغوية، وتجعل مناهج القراءة للنص قطبين: الأول فني يتجلى في النص الذي ينتجه المؤلف، ويمثل فنية النص والثاني جمالي: ويمثل الإدراك الذي يحققه المتلقي عبر تفاعله مع النص"[15].

الهوامش:

[1]. عبد العظيم، مُحَمَّد، (1992م)، معاني النص الشعري، تونس، ص197.

[2]. العضيبي، مُحَمَّد عبد الله، (2009م)، النص وإشكالية المعنى، بيروت، الجزائر، ط1، ص76.

[3]. الصكر، حاتم، (1998م)، ترويض النص، القاهرة، ص42.

[4]. بنيس، مُحَمَّد، (1989م)، الشعر العربي الحديث، الدار البيضاء، ص61.

[5]. جماعة من الباحثين، (1987م)، قضايا المنهج في اللغة والأدب، المغرب، ص59.

[6]. السامر، حامد مردان، (2015م)، تلقي النص في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ط1، ص198.

[7]. المرجع نفسه: ص198.

[8]. حرب، علي، (2005م)، أزمنة الحداثة الفائقة، بيروت، ط1، ص245.

[9]. العربي، مُحَمَّد، (1999م)، البلاغة العربية، المغرب، ص32.

[10]. تحليل النصوص الأدبية، (1998)، بيروت، ط1، ص09.

[11]. سحلول، حسن مصطفى، (2001م)، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، دمشق، ص98.

[12]. الزين، مُحَمَّد شوقي، (2000م)، تأويلات وتفكيكات، الدار البيضاء-بيروت، ط1، ص33.

[13]. حفناوي، بعلي، (2007م)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، بيروت، الجزائر، ط1، ص47.

[14]. ينظر: الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي، الدار البيضاء-بيروت، 2007ط3، ص72. وينظر: الغذامي، عبد الله، (2004م)، نقد ثقافي أم نقد أدبي، وعبد النبي اصطيف، (20004م)، بيروت، دمشق، ط1، ص30.

[15]. ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ص48-49.